كان قد ساق الهدي ونحره يوم النحر وانه لم يعتمر بعد الحجة في ذلك العام لا هو ولا احد من اصحابه الا عائشة أمر أخاها ان يعمرها من التنعيم أدنى الحل وكذلك الاحاديث الصحيحة عنه فيها أنه لم يطف بالصفا والمروة الا مرة واحدة مع طوافه الاول فالذين نقلوا انه أفرد الحج صدقوا لأنه أفرد أعمال الحج لم يقرن بها عمل العمرة كما يتوهم من يقول ان القارن يطوف طوافين ويسعى سعيين ولم يتمتع تمتعا حل به من احرامه كما يفعله المتمتع الذي لم يسق الهدي بل قد أمر جميع أصحابه الذين لم يسوقوا الهدي ان يحلوا من احرامهم ويجعلوها عمرة ويهلوا بالحج بعد قضاء عمرتهم

باب المقالات

منافع الاوربيين ومضارهم في الشرق: الاستبداد

(٣)

الفائدة الثانية الخروج من الاستبداد

أتى على الشرق حين من الدهر كان يعبد فيه الملوك عبادة حقيقية ويسميهم آلهة ويدعوهم أربابا وهو لم يسلم من هذا الاعتقاد سلامة تامة عامة الى اليوم ثم ارتقى بعض شعوبه الى الاعتقاد بأن الملوك ليسوا آلهة خالقين ولكنهم أصحاب سلطة إلهية وسيادة ربانية تجب طاعتهم عدلوا أو ظلموا، وتقديسهم اساؤا أو أحسنوا، ثم جاء الاسلام باصلاح جديد فجعل أمر المؤمنين شورى بينهم وأمر أصحاب الرأي السديد والمعرفة بالمصالح العامة واجب الامتثال في سياسة الامة وادارتها حتى لا يطمع فرد من الافراد بالاستئثار بالسلطة والاستبداد بالأمر. وجرى النبي صلى الله عليه وسلم في سياستهم على هذه القاعدة فكان يقدم رأي أصحاب الرأي المعبر عنهم بأولي الأمر على رأيه كما فعل يوم أحد اذ كان صرح بأنه لا يرى الخروج الى حرب قريش حتى تصل الى المدينة ورأى أصحابه الخروج فعمل برأيهم وكما فعل يوم بدر والاحاديث في ذلك كثيرة

شهيرة . ولكن الشرق لم يكن تم استعداده لهذا الاصلاح الاعلى لما بيناه في مقال (طبيعة الاجتماع في الحاكمين والمحكومين) لذلك تمنى نبي أمية أن يعيشوا به ويزيلوه في زمن قريب

ولي أبو بكر رضي الله عنه أمر المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس وقال : وليت عليكم ولست بخيركم فاذا استقمت فأعينوني واذا زغت فقوموني : وولي عمر رضي الله عنه فقال نحو ذلك في خطبته . ومن المشهور المستفيض على الألسنة انه لما قال على المنبر : من رأى منكم فيّ عوجا فليقومه : قام رجل فقال لو رأينا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا فقال : الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوّم عوج عمر بسيفه : ومما روي عن عثمان رضي الله عنه انه قال على المنبر « أمرني لا مركم تبع » وقال في أول خطبة خطبها بعد أن ولي الخلافة الا وان لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ثلاثا — اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم — وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ ، والكف عنكم الا فيما استوجبتم »

فانظر كيف قيد اتباع من كان قبله بكونه فيما اجتمعوا عليه وسنوه فهو دليل وراء الادلة العملية على ان أبا بكر وعمر كانا يأخذان برأي الأمة ، فيما لم يرد به الكتاب ولم تمض به السنة ، وتأمل قوله « فيما لم تسنوا عن ملأ » والملأ الجماعة من أهل الرأي والمكانة في الأمة وهم بمعنى النواب

أما سيرة علي كرم الله وجهه ورضي عنه فهي على تلك السنة ماغير ولا بدل ولا رغب في الدنيا ولا جنح الى زخرفها ولكن نزا عليه بنو أمية أعداء بني هاشم في الجاهلية والاسلام وكان من أمرهم ما كان ولا محل لشرحه في هذا التمهيد . وانما غرضنا أن نقول إنهم استبدوا عملا وما عدموا أن جهروا بالخروج عن سنن الاسلام في حكمه قولا اذ قال خطيبهم عبد الملك بن مروان على المنبر « من قال لي اتق الله ضربت عنقه » فتحولت الحكومة الى استبدادية كانت على حسب سيرة الحاكم الاعلى الملقب بالخليفة أو الملك فتارة يكون عادلا كعمر ابن عبد العزيز وتارة يكون جائرا وتارة متوسطا وكان معظم ظلمهم وظلم من

بعدهم لمن يأنسون منه سخطا من سلطتهم أو مقاومة لها وسائر الناس في راحة وأمان ، يتقدم به العلم ويزهو العمران ، حتى استدار الزمان ، ورجع الشرق الى نحو ما عليه كان ،

أخبار الممالك يقل في القارئين من لا يعرفها ، وسيرة اسماعيل باشا لم يمت جميع من ذاقوا مرارتها ، ومفاسد بايات تونس مأثوره ، ومنكرات دايات الجزائر غير منكورة ، كان من هؤلاء من يعاقب الناس الذين يحمل عليهم غضبه ولو لتفلت عرضهم من فمه بأحدى ثلاث — الخنزوق أو ترديته من أعلى جبل قسنطينة أو إغراء كلاب عاقرة به تنهشه وتمزق لحمه حتى يموت شر ميتة . كان هذا قبل إغارة فرنسا على الجزائر . ولا يجهل أحد من قراء الصحف حال بقية الممالك التي لم تؤثر فيها حالة الأوربيين ولم تحملها على تغيير سلطتها الاستبدادية إما لجهلها بها لعدم الاختلاط بهم واقتباس علومهم والوقوف على حال حكوماتهم كراكش وإما لأن السلطة الاستبدادية فيها لا تزال أقوى وأقدر على منع العلم عن الجاهلين ، مع مطاردة غلاب الاصلاح من العارفين ، كما هو شأن الحكومة العثمانية

ان محاربة الاستانة للعلم والدين ، ومطاردتها للعقلاء والعارفين ، لفوق ما يتخيل المتخيلون ، لأنها اضعاف ما يروي الراوون ، ان أكثر المطبوعات العربية الجديدة التي تعد في مصر من آيات الارتقاء التي استعدت أو تستعد بها الامة لأن تحكم نفسها بنفسها هي في ولايات العثمانية من اشد الجنايات وأعظم الجرائم تضطرب لذكرها القلوب وترتعد الفرائص حتى من أولئك الذين يسفكون الدماء بالاسواق في وقت الضحى لأن سافك الدم كثيرا ما يسلم بالرشوة أو المحاباة ، واذا حكم لا تدرأ منه المحاماة ، واذا حكم عليه يدركه العفو في أحد الأعياد بعد عشر سنين أو اقل ، أما من يتهم باقتناء كتاب مما يعد منعها للافكار أو بطلبه من مصر فلا يتجرأ أحد على الدفاع عنه ، ولا على الارتشاء منه ، ولا يؤخذ منه عدل ولا تنفعه شفاعة ،

كم من عالم عامل ، ومن غيور فاضل ، يئن في ظلمات السجون لا يتجرأ أحد على ذكره ولا السؤال عنه ، وكم من عالم وغيور أخرج من داره ، ونفي الى حيث لا يسمع أهله وولده بذكره ، وما كنت عازما على الاشارة الى مثل هذا لولا أن

ألقى الي قبل هذه الكتابة رقيم من الحجاز فيه ان أمير مكة حمل بعض أهل العلم مئة جلدة على مشهد من الناس ثم كبه في السلاسل والاغلال لأنه كتب كتابا في التوحيد قال فيه ان الأمر كله لله لا ينبغي ان يطلب الخير ودفع الضر من غيره عز وجل بعد العجز عن الاسباب التي سنها واستعمال القوى التي وهبها فصار إظهار التوحيد الخالص ممنوعا بهذه الحكومة في حرم الله ، وقد كان أعظم مظاهره له في أرض الله ،

هذا واليابان تفاخر أوربا بالحرية والعدل وحكم الشورى وايران تحاول مجاراتها في ذلك ومصر لا حديث لها الا المجلس النيابي فمن أبنائها من يلح بطلبه الآن ومنهم من يقول يجب أن نمهله أولا عدته ونكتفي الآن بتوسيع اختصاص مجلس الشورى ومجالس المديريات . وقد سبقهم العثمانيون الى المطالبة باعادة القانون الاساسي ومجلس المبعوثان (أي النواب) وترى أهم حديث للجرائد التونسية في هذه الأيام حديث مجلس الشورى عندهم والمطالبة بانصاف التونسيين من الأوربيين

لكن الفرق بين المصري وأخيه العثماني أن الأول يجهر بطلبه في لدد ويناقش حكومته جهرا في المجالس الرسمية وفي الجرائد وفي المحافل العامة والخاصة وقد يطعن عليها وعلى القوة المشرفة عليها وهي تبيح له ذلك والعثماني لا يجرأ على الحديث بذلك في بلاده وان كان في كسر بيته قد أغلق ، دونه الأبواب ، وأرخيت عليها الستور والاستار ، لأنه أعلم الناس بالمثل القائل « للحيطان آذان » وهو لا يأمن على نفسه الاهل والجيران ، لأن الاستبداد ، قد أفسد الناس أي افساد ، حتى صار الرجل الحر يفر من أخيه ، وأمه وأبيه ، وفصيلته التي تؤويه ، وانما يجهر بذلك في أوربا ومصر ، وكل بلاد ليس فيها لأبناء جنسه سلطان ولا حكم ،

فأعظم فائدة استفادها أهل الشرق من الاوربيين معرفة ما يجب ان تكون عليه الحكومة واصطباغ نفوسهم بها حتى اندفعوا الى استبدال الحكم المقيد بالشورى والشريعة بالحكم المطلق الموكول الى ادارة الافراد فمنهم من نال أمله على وجه الكمال كاليابان ، ومنهم من بدأ بذلك كايران ، ومنهم من يجاهد في سبيل ذلك بالقلم واللسان ، كمصر وتركيا

ليست هذه الفائدة بالشيء التافه ولا بالأمر اليسير ولا هي بالمنفعة التي تقرن بالظاهر بل هذه مرتبة البشرية العليا، في هذه الحياة الدنيا، فان القوم الذين يرضون ان يستبدهم حاكم يفعل فيهم ما يشاء ويحكم بما يريد ينبغي ان يعدوا من الدواب الراعية، والانعام السائمة، إذن هذه الفائدة هي عبرة عن الارتقاء من حضيض البهيمية، الى أفق الانسانية، فحسب الشرقي أن استفاد هذه الفائدة وعرف قيمتها

لا تقل أيها المسلم ان هذا الحكم أصل من أصول ديننا فنحن قد استفدناه من الكتاب المبين، ومن سيرة الخلفاء الراشدين، لا من معاشرة الأوربيين، والوقوف على حال الغربيين، فانه لولا الاعتبار بحال هؤلاء الناس لما فكرت أنت وأمثالك بأن هذا من الاسلام ولكان أسبق الناس الى الدعوة الى إقامة هذا الركن عليه الدين في الاستانة وفي مصر ومراكش وهم هم الذين لا يزال أكثرهم يؤيد حكومة الأفراد الاستبدادية ويعد من أكبر أعوانها، ولما كان أكثر طلاب حكم الشورى المقيدة الذين عرفوا أوربا والأوربيين، وقد سبقهم الوثنيون الى ذلك. ألم تر الى بلاد مراكش الجاهلة بحال الأوربيين كيف تنخبط في ظلمات استبدادها ولا تسمع من أحد كلمة «شورى» مع أن أهلها من أكبر الناس تلاوة لسورة الشورى ولغيرها من السور التي شرع فيها الأمر بالمشاورة وفوض حكم السياسة الى جماعة أولي الأمر ولرأيهم

فان قلت ان أول من نبه المصريين الى حقوق الأمة على الحاكم والى فضل حكومة الجمهورية والملكية المقيدة على الحكومة الاستبدادية شيخان من شيوخ الدين وامامان من أئمة الاسلام وهما السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده وانك أنت قد نشرت في «المنار» مقالات السيد مقالات في «الحكومة الاستبدادية» كانت مما نشره هو في بعض الجرائد على عهد اسماعيل باشا وهي تحرك الجماد وصرحت في ترجمة الشيخ بأنه كان يدعو الى ذلك وانه قال بل كتب عن نفسه هذه الكلمة الجليلة «دعونا الى هذا والاستبداد في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس كلهم عبيده أي عبيد» وقد كان مضى على المصريين أكثر من

نصف قرن وهم يتدارسون علوم أوربا ويشتركون مع الأوربيين في كثير من الأعمال ويزاحمونهم بالمناكب ويتبادلون بالأموال ، ولم يخطر في بالهم ان يقلدوهم باصلاح الحكومة والسيطرة عليها

ان قلت هذا محتجا على اننا نحن المسلمين ، قد اقتبسنا فائدة مقاومة الاستبداد من الغربيين ، فان لي أن أجيبك عن ذلك بأنني لا أنكر ان ديننا يفيد ذلك كما رأيت في مقدمة هذا المقال . كيف وانني لم أطلع على كتابة لأحد في ذلك أوسع مما كتبته في « المنار » وانني مطلع على سيرة هذين الامامين الحكيمين وعالم بأنهما كانا قد عاهدا توفيق باشا قبل ان يصير الأمر اليه على نصره وعاهدهما هو على انشاء مجلس نيابي وعلى تعميم التعليم في القطر المصري ، ومع هذا كله أقول اننا لولا اختلاطنا بالأوربيين لما تنبهنا من حيث نحن أمة أو أمم الى هذا الأمر العظيم ، وان كان صريحا جليا في القرآن الحكيم ، نعم ان استاذينا الحكيمين رحمهما الله تعالى أهل لأن يفهما ذلك من القرآن لانهما أول من دعا في هذا العصر الى جعله أساسا للاصلاح وبينا من حكمه وفضله ، ما عجزت الأوائل عن الاتيان بمثله ، ولكن كلامنا في تنبه الشعوب الشرقية على اختلاف مللها ونحلها ، لا تنبه فيلسوفين من أهل ملة منها ، على أن هذين الحكيمين قد استفادا من الاعتبار بحال أوربا وعرفا حال أهلها قبل دعوتهما الى هذا الاصلاح

لا ينبه الامة الى مثل هذا التغيير العظيم الا الاحساس بالخطر والخوف من سوء العاقبة ورؤية العبر بأعينها ، وسماع أخبار الذين صرعوا الاستبداد من قبلها ، ولذلك نقول اننا ما عرفنا قيمة هذه الفائدة لا بعد أن أحسسنا بالفائدة التي تقابلها وهي مواثبة استقلالنا والاعتداء عليه وهي ما نعنيه في قسم المضار ان شاء الله تعالى